العلاج بالطرق النفسية

للدكتور فضل أبو بكر

بدأت الظواهر النفسية منذ بدء خلق الإنسان فهي جزء منه صادرة عنه ، وكانوا يطلقون عليها فيما مضى العلوم الروحانية « Spiritualisme » وهي عبارة عن بعض الظاهرات النفسانية والروحانية مثل الوساطة وهي المصدر من وسيط « Médium » وهو شخص موهوب يملك القدرة بأن يكون حلقة الاتصال بين الموتى والأحياء ، إذ يتاجى الحي روح ذوي قرابته وأصدقائه ممن توفاهم الله عن طريق ذلك الوسيط . ومنها ازدواج الشخصية التلقائي « Dédoublement Spontané de Personnalité » ومثال ذلك أن ترى رأى العين شخصاً بعيداً عنك بمناسبة حادث خطير وقع لذلك الشخص ، وتسمع صوته تماماً ، وهي رؤية وسمع يختلفان كل الاختلاف عما يراه ويسمعه بعض المجانين والمصابين بعُصاب أو ذُهان أو باختصار فإن تلك الظاهرة ليست « بالهلوسية » البصرية أو السمعية وإنما هي ظاهرة ازدواج الشخصية التلقائي .

وقد اهتم بدراسة هذه الظاهرة بعض الإنجليز مثل « جيرني » « gurney » و « ميرز » « Myers » وهما عضوان في جمعية الأبحاث النفسية (البسيكولوجية) الإنجليزية ، ومن الفرنسيين « فلاماريون » و « لانسلن » « Lancelin » .

كل هذا كان معروفاً لدى القدماء ولا سيما الشرقيين مثل الهنود والصينيين وقدماء المصريين كما كانوا يطلقون على تلك العلوم التي تختص بدراسة مثل هذه الظاهرات الروحانية والنفسية العلوم المحجوبة « Les Sciences Occultes » حيناً ، والعلوم اللدنية العلوية في بعض الأحيان . وكانت في متناول فئة قليلة موهوبة تأتي من الأعمال في بعض الأحيان ما يشبه المعجزات ويستكشف حجب الغيب الكثيفة .

وظهر في مستهل فجر النهضة العلمية بعض الفلاسفة ممن انقطعوا لدراسة الظواهر النفسية والروحية مثل « بلين » « Pline » و « بازيل » « Basile » والفيلسوف ابن سينا و « باراسلز » « Paracelse » وزعم هذا الأخير بأن من الممكن أن يؤثر عقل في عقل آخر بوساطة ما سماه وقتئذ « بالسائل المغناطيسي » .

وفي عام ١٧٧٠ جاء « مزمر » « Mesmer » بنظرية المغناطيسية « Magnetisme » ولقيت استعداداً في النفوس ضمن لها نجاحاً باهراً . ومحتوى « المغناطيسية » أو « المزمرية » كما كانوا يسمونها ، أن كل جسم من الأجسام جماداً كان أو حيواناً تنبعث منه موجات مغناطيسية تكون في الحيوان أشد مما هي في الجماد ، وفي الإنسان أشد مما هي في الحيوان . وكلما كان الإنسان قوياً سليماً كانت قوة الأشعاع عنده أكبر ، وما الأمراض إلا اضطراب يعتري توازن تلك المغناطيسية في الإنسان ، كما أن لبعض الناس المقدرة — بواسطة اللمس — على أن يعيدوا توازن مغناطيسية المريض ومن ثم يحدث الشفاء .

وقد سادت نظرية المغناطيسية العالم أكثر من نصف قرن ، وكانت تستعمل في التنويم وفي علاج بعض الأمراض . وظهر من بعد « مزمر » « لافونتين » الذي نسج على منوال مزمر إلى أن جاء في سنة ١٨٤١ الطبيب الإنجليزي « بريد » « Braid » وحضر ذات يوم جلسة خاصة بعمليات المغناطيسية التي يقوم بها « لافونتين » فقام « بريد » بدوره بعدة عمليات ووصل إلى نتائج مشابهة مع أنه لم يستخدم الطرق التي استعملها لافونتين ، وأنكر في الوقت نفسه وجود السائل المغناطيسي والمغناطيسية الحيوانية التي كان يعتقد فيها من سبقوه كمزمر ولافونتين ، والتي سادت العالم مدة طويلة . وسمى بريد تلك الظاهرة بالنوم « Hypnose . » وطريقة الحصول عليها «بالتنويم» « Hypnotisme » واعتنق مذهب بريد كل المشتغلين بعلم النفس والروحانيات في ذلك الحين ، كما أقرته الجامعات رسمياً وأدخلت دراسته في كليات طبها ولا سيما في باريس .

ثم جاء العالم الفرنسي الأستاذ « شاركو » « Coarcât » ومساعده الأستاذ « بيتر » « Pitres » في كلية الطب بباريس ومستشفى « السالبتريير » الخاص بالأمراض العصبية ، كما أن شاركو ومدرسته استعملوا ظاهرة التنويم في الكثير من مرضاهم واستعانوا بها في العلاج وخاصة لمن كان مصاباً بالهستريا والصرع

وبعض الأمراض العصبية والذهنية الأخرى .

وقد برزت فى الميدان مدرسة « نانسى » بفرنسا تزاحم مدرسة باريس وكان على رأسها الأستاذ «ليبوبول» « Liebeault » الذى خطا بهذا النوع من الدراسات النفسية خطوات واسعة ودعمه بأسس ثابتة متينة كما طبعه بطابع علمى وأثبت أن التنويم ما هو إلا وليد الإيحاء المباشر وهو ما سماه « بالتنويم النفسى » « Hypnotisme Psychique » ليميزه بذلك عن تنويم شاركو « الحسى » أى الذى يؤتى به عن طريق الحواس مثل البصر والسمع واللمس .

والإيحاء كما يعرفه « برنهايم » « Bernhéim » هو عبارة عن ظاهرة نفسية يوحى فيها للانسان بفكرة أو رأى يقبله عقله فيستولى على نفسه ومشاعره . ولكى نعطى القارىء فكرة أوضح نقول إن النشاط النفسى (البسيكولوجى) يشمل عاملين مختلفين متضادين هما عامل « الشعور » « Conscience » أو الوعى ، و« اللاشعور» « Sub - Conscience » . فالأول هو عامل التفكير والتميز والحكم على الناس والأشياء ، وهو طوعى إرادى يتغلب على الثانى فى حالة الصحو ، وأما الثانى أى اللاشعور فهو آلى غير إرادى ، وهو أداة للحب والهوى ومكمن للعواطف والمخاوف والخيال والذاكرة .

أما أثر الإيحاء فى النشاط البسيكولوجى أى فى الشعور واللاشعور فهو إضعاف الأول وشل نشاطه مع إيقاظ الثانى وإثارته لأكبر درجة ممكنة. وهذا مايحدث تماماً فى النوم العادى الطبيعى إذ يضعف مفعول الشعور رويداً رويداً حتى إذا ما وصل النائم إلى سبات عميق زال أثر الشعور بتاتاً ، أما اللاشعور فيكون فى هذه الحالة فى حالة نشاط عظيم ويقظة تامة .

وإثارة الإيحاء ومداه والانتفاع من ذلك فى العلاج ، كل ذلك يتوقف على عوامل كثيرة من جانب الموحى والموحى إليه ، فيجب على الأول أن يكون ملماً بأوليات علم النفس ، كما يجب أن يكون بارز الشخصية قوى الإرادة صبوراً ، كما يتوقف على مبلغ حساسية الموحى إليه واعتقاده بل ثقته بمقدرة الموحى . ويتفاوت الناس فى درجة الحساسية . وكان « شاركو » يعتقد بأن مرضى الهستريا والمصاب والذهان هم الذين يسهل تنويمهم . والواقع أنهم أشد حساسية من غيرهم . وإن كان الأصحاء — إذا توفرت فى الموحى والموحى إليه الشروط المذكورة — قلما يخرجون عن محيط سلطانه ويقعون تحت براثنه .

أما تطبيق هذه الظاهرات على العلاج فقد اهتدى الإنسان إليه بالسليقة منذ عصور عريقة فى القدم ، ومازالت تلك الطرق بدائية لدى الشعوب البدائية مثل التمائم والتعاويذ لجلب النفع ودفع الأذى وقضاء الحاجة ، والسحر والحسد لجلب الأذى وإلحاق الضرر ، والعرافة للكشف عما يخبئه الغيب وعما يتمخض عنه المستقبل ، كل ذلك عوامل وطرق نفسية من غير صقل ولا تهذيب وإن كان من المغالاة أن ننكر على تلك الطرق بعض النتائج الباهرة التى يحصل عليها بعض من يمارسونها .

هذا ، وقد ثبت عملياً وأصبح فى حكم البدهيات معرفة الصلات الوثيقة التى تربط الانفعالات النفسية بالظواهر الفسيولوجية وتأثيرها تأثيراً مادياً عضوياً ؛ ومع ذلك فليسمح القارىء بأن نضرب له بعض الأمثلة : إذا فوجىء إنسان بخبر محزن وصدمة عنيفة ، فقد يشعر بجفاف فى حلقومه إذ يغيض معين سائله اللعابى ويقف إفرازه ؛ أو فى حالة الفزع والخوف يصاب بإسهال ويشعر بحاجة ملحة إلى التبول ؛ أو أن يسيل فيض من الدمع على خده فى حالة الحزن ، كل هذه الأمثال المعروفة المألوفة وكثير غيرها يؤيد سلطان العوامل النفسانية على الجسم وفسيولوجيته .

والآن أذكر للقارىء بعض الأمثلة التى تستعمل فيها الظواهر النفسية كعوامل للعلاج .

١ — استخدامها فى التخدير الجراحى :

هنالك بعض الحالات الجراحية لا يمكن فيها استعمال مخدر كيمائى ؛ إذ أن بعض المرضى لا يتحملون تخديراً كلياً ولا موضعياً لأن أجسامهم من حيث القلب والرئة مريضة هزيلة ، وقد كنت شاهد عيان سنة ١٩٣٥ ، فى إحدى مستشفيات مونبلييه حين أريد إجراء عملية فى الحال لفتاة صغيرة فى الثانية عشرة من عمرها أصيبت بالتهاب حاد فى مصيرها الأعور ، وكانت ضعيفة القلب هزيلة الرئتين لحد لا يسمح بتنويمها بالمخدر ، ولابد من إجراء العملية فى الحال لانقاذ حياتها المهددة ، فلم ير الأستاذ إتيين « Etienne » وكان أستاذاً لجراحة الأطفال ، بدأ من الالتجاء إلى التنويم النفسانى عن طريق الإيحاء والخطوات التى وصل بها إلى ما أراد هى :

حدج الفتاة بنظرات قوية ثاقبة لمدة لا تتجاوز بضع ثوان ، ثم صاح بها فى صوت جهورى متزن مطمئن ثلاث مرات بأنها سوف لا تشعر بأقل ألم ، ومن ثم وضع على وجهها القناع الخاص بالتخدير العادى لإيهامها فقط ، ولم يصب عليه نقطة واحدة من المخدر وأمرها أن تعد من واحد إلى عشر . وما إن وصلت إلى الرقم السادس حتى اختفى صوتها ، ووقعت فى نوم هادىء عميق ، وأجريت العملية فى ظروف مؤاتية وأنقذت حياتها . وقد قرأت عن بعض حالات مشابهة فى جراحة طب الأسنان

٢ — استخدام الإيحاء فى تخدير الآلام الجسدية :

نجحت طرق الإيحاء عن طريق التنويم أو بدونه فى تخدير الآلام المبرحة بل فى إزالتها نهائياً فى بعض الأحيان . ويذكر الأستاذ « جاجو » « Jagot » وهو من المشتغلين بعلم النفس أنه دعى ذات ليلة فى ساعة متأخرة لرجل كان يسكن الطابق الأعلى من البيت الذى كان يقطنه ، وكان الرجل يتلوى من ألم مبرح فى ضرسه لم يقو على احتماله إلى حد أن سمح لنفسه بإزعاج الأستاذ فى مثل تلك الساعة مع علمه بأنه ليس بطبيب أسنان ، ولكنه كان يؤمن بمقدرته النفسانية ، فهب الأستاذ إلى نجدة الرجل وأمكنه إزالة آلامه وإعادة الطمأنينة إلى نفسه عن طريق الإيحاء

٣ — العلاج النفسانى امضى فعلا وظيفة :

مثل هذه الحالات كثيرة . وسأذكر مثلا شاهدته هنا بنفسى فى هذه الأيام وهو ما أنارنى إلى كتابة هذا البحث ، وقد وقع فى إحدى مستشفيات بوردو مع الأستاذ العالمى الكبير « جورج بورتمان » « G . Portmann » وهو يعد أكبر حجة فى العالم أجمع لأمراض الأنف والأذن والحنجرة — أتت صباح يوم سيدة تصحب ابنتها وكانت تشعر ببحة فى الصوت على أثر صدمة نفسية غرامية أفضت إلى قبض الصوت وفقدانه تماماً « Aphonie Complète » وقد فحصها الأستاذ بدقة تامة شأنه مع كل المرضى كما فحصناها من بعده فلم نر غير حنجرة سليمة ، ليس بها علامة لمرض أو أثر لالتهاب ؛ وأوتار الحنجرة كذلك فى حالة طبيعية ، فأدركنا أن هذا النوع ليس عضوياً وإنما هو وظيفى أو هستيرى كما يسمونه ؛ فاستعمل معها طريقة الإيحاء ، وكانت دهشتنا شديدة إذ رأينا الفتاة وقد تم شفاؤها وعاد صوتها فى اليوم الثالث إلى حالته الأولى .

وأظن القارىء قد سمع شيئاً عن مدينة لورد « Lourdes » بفرنسا وهى مدينة صغيرة يقال إن العذراء مريم ابنة عمران قد ظهرت فيها . وقد يكون ذلك عن ظاهرة ازدواج الشخصية كما أسلفنا فى مستهل المقال . وقد حدثت الرؤية لفتاة سميت فيما بعد بالقديسة « برنادوت » وكانت فى حالة تامة من اليقظة متمتعة بقواها العقلية . فأصبحت مدينة « لورد » على أثر هذا الحادث أرضاً مقدسة وموطناً للحج يؤمه الزوار و « الحجاج » من المسيحيين من كل حدب وصوب بقصد التبرك وقضاء الحوائج وشفاء الأمراض ، وإن بعض الحالات المرضية قد تم علاجها فى تلك المدينة — والمريض هنالك يحضر تحضيراً خاصاً قبل ذلك بأيام وتعرض عليه الصور الفوتوغرافية للمرضى الذين شفوا من مرضهم ولا سيما من كان منهم مصاباً بداء المريض الذى ينشد الشفاء . كما تلقى عليه دروس خاصة وكل ما من شأنه أن يضاعف اعتقاده ويقوى إيمانه ، ومن ثم يسمح له بالاستحمام فى حوض يحوى « الماء المبارك » . وقد دلت الإحصائيات على أن بعض المرضى قد تحسنت حالتهم ، كما تم شفاء البعض — وإنى من غير أن أتعرض للناحية الدينية من الموضوع أقول بأن العامل النفسانى من إيحاء وغيره يلعب دوراً هاماً فى مثل هذه الأحوال .

٤ — العلاج البسيكولوجى فى التربية :

وهو ما يسمونه بالثقافة النفسية . استعملت هذه الطرق فى تربية الناشئين بل والكبار لعلاج الكثير من الأمراض النفسية مثل ضعف الأرادة والتردد وفرط الحياء والجبن والتهور وضعف الذاكرة ، وغير ذلك من الأمراض والنقائص النفسية ؛ وقد أتت بنتائج مشجعة كما استخدمت فى عالم الفن والتمثيل ، وخلقت من البعض فنانين تبدلت شخصياتهم تماماً عما كانوا عليه من قبل مما أدى إلى نجاحهم وشهرتهم فى مهنتهم .

وخلاصة ما تقدم أن العلاج النفسى حقيقة لا ريب فيها ، وليس نوعاً من الدجل والشعوذة كما كان يظن البعض ؛ وهو يزداد أهمية يوماً بعد يوم ، ويتطور بتطور علم النفس والوصول إلى غوامضه ، كما أنه من المعقول أن نعقد عليه آمالا كبيرة فى المستقبل القريب .

(باريس) فضل أبو بكر

عضو بعثة فاروق الأول السودانية بفرنسا